والبلاد التي انتجت تلك المدينة وانجبت سكانها لم تزل على حالها ولم يتغير ترابها ولا تغير ماؤها ولا هواؤها . والإحالة على القدر والدهر اسلوب من اساليب التعبير لا يقصد به اظهار حقيقة ولا تقرير حكم وانما الذي خرّب المدينة والبلاد كلها فساد الاحكام فانه افسد مصالح العباد واخلاقهم فتولاّهم الضعف ودبّ فيهم الفناء فاصبحوا لا ترى الاّ منازلهم او خرائبها

اليزا اقرت

ايتها النفس الزكية التي غادرت عالم الشقاء . وانتقلت من دار الفناء الى دار البقاء . اوحي اليّ لكي اقوم ببعض الواجب من وصف اخلاقك الراضية . فلقد طالما كنتِ توحين الى بناتك وتبثّين في نفوسهنّ روح القيام بالواجب في السر والعلانية . نُعيت الى بناتك ومريداتك على غير انتظار بعد بُعد الدار وشط المزار

وكنا قُبيْل الموت نستعظمُ النوى فقد صارت الصغرى التي كانت الكُبْرى
تشقّ علينا النعيُ حتى كاد يشقُّ المرائر وما منّا الاّ كلٌّ باكية تردّد قول مَن قال

فوا اسفا ان لا اكبَّ مقبلاً لرأسك والصدرَ الذي مُلئا حزما
وان لا ألاقي روحكِ الطيب الذي كأنّ ذكيَّ المسكِ كان لهُ جسما

ولدت فقيدة العلم والادب والفضيلة والمحبة في مدينة ولوبي من ولاية اوهيو باميركا سنة ١٨٤٣ وتعلمت في مدرسة بلدها ثم في مدرسة ليروي الجامعة بنيويورك ونالت الشهادة العلمية سنة ١٨٥٨ وعادت الى مدرسة ولوبي فعلمت فيها اربع سنوات وانتقلت منها الى مدرسة ليروي ثم الى مدرسة كانتون حتى اذا اتقنت فن التعليم وادارة المدارس عُلّمًا وعملاً دُعيت الى سورية سنة ١٨٦٨ لتدير مدرسة البنات الاميركية في بيروت . وكان همُّها الاكبر في اول الامر ان تتعلّم اللغة العربيّة وتبث النظام والتهذيب في المدرسة . وكانت ذكية الفؤاد رخيمة الصوت رقيقة القلب وفورة المجلس فاحبها تلميذاتها واكرمنها وبذلنَ جهدهنّ في طاعتها وارضائها وهي لا ترضى بغير الاجتهاد والتأدب وحسن السلوك ولذلك نجحت المدرسة في عهدها ونبغ منها كثيرات من اللواتي تزدان بهنّ مجالس مصر والشام في هذه الايام زوجات كنّ وامهات او معلمات ومربيات . واللواتي اقمنّ منهنّ في بيروت كنّ ينتظرن زيارتها في بيوتهنّ انتظار العيد ويحببنها حبّ الاخت للاخت ويكرمنها اكرام البنت للام

وكان اسلوبها في التعليم اسلوب المساعدة والترغيب حتى يقبل التلميذات على العلم من انفسهنّ

ويرغبن في الدرس ويستمدن منهُ . ورغبت التلميذات في درس العلوم الطبيعية كالطبيعة والفلك والحيوان والنبات مقتصرة على المعارف العامَّة منها . ولما كتاب حسن في علم الفلك النظري وآخر في علم الحساب العقلي وضعتهما كليهما باللغة العربية عدا كتابها في سيرة بولس الرسول

وامتازت بحب التنظيم والترتيب وبتدقيقها في المحافظة على القوانين فكنَّا نرهبها رهبةً شديدة ولا نخالف لها امرًا وهي تبدي لنا الحب والشغف ولكنها لا تتأخر عن قصاص مَن تخالف قوانين المدرسة القصاص المفروض لمخالفتها

وكانت هي نفسها القانون الاكبر والمثال الاوضح للسلوك والترتيب والتهذيب فان حركاتها وسكناتها وكلامها وسكوتها ومشيها وقيامها واكلها وشربها وتنظيم شعرها ولبسها ومقابلتها للناس وترتيب غرفتها وكتبها ومكتبها — كل ذلك كان دروسًا لنا وقدوةً نقتدي بها . ولا انسى سهرها علينا ولا سيما على المريضات منا وترحيبها بتلميذاتها اذا زرنها بعد خروجهنَّ من المدرسة فتضيفهنَّ ويصفنها كاخوات شقيقات وترحب بازواجهنَّ كاخوة واقارب

وعلى وفرة اشغالها كانت تكاتب تلميذاتها البعيدات عنها فتقصُّ عليهنَّ نوادر الاخبار وتسأل عن سلامتهنَّ وسلامة ازواجهنَّ واولادهنَّ وتظهر لاولادهنَّ من المشاشة والحب ما تظهرهُ الجدَّة لاحفادها

ومنذ سبع سنوات استعفت من رئاسة مدرسة بيروت وعادت الى اميركا وآخر كتاب كتبت بهِ اليَّ من هناك وصفت لي فيهِ دار المنقطعين بمدينة شيكاغو وما تجدهُ من السرور في تربيتهم وتهذيبهم فان بعض النساء الغنيات من تلك المدينة انشأنَ هذه الدار للمنقطعين من الصبيان والبنات وانطنَ ادارتها بها

ثم جاءني من رفيقتها في تعليمنا مس تيلر التي كانت تعلمنا معها باسم مس لورن كتاب بتاريخ ١٧ فبراير تقول فيهِ ما ترجمتهُ " استطيعين ان تتصوري دهشتي وحزني حينما بلغني نعي عزيزتنا مس افرت يوم السبت الماضي (٨ فبراير) . مرضت اربعًا وعشرين ساعة بالنزيف الدماغي لم تعِ فيها على شيء ... وقد نعتها اليَّ اختها ... كم من ابنة وامرأة في سورية ومصر يقمنَ الآن ويطوِّبنها . سبعًا وعشرين سنة سعت في خدمة بلادهنَّ جعل الله سعيها مقبولاً لديهِ ونفع بها كل من عرفها "

هذا ما سطرهُ قلمي العاجز ايتها المعلمة الكريمة والصديقة العزيزة من وصف مآثرك . سقى الله ثراك صيب رحمتهِ ونفع بنات المشرق بعملك وفضائلك وعزَّى ذويك وعزانا جميعًا عن فقدك

ياقوت صروف